

قضايا الإصلاح في الأدب الجزائري

1- مدخل:

مثل أي بلد عربي، كانت الجزائر بحاجة إلى إصلاح منذ أواخر التواجد التركي بها على الأقل (سعد الله: محاضرات 151- ومحمدان خوجة المرأة 111 وما بعدها)، وهو ما سبقت الإشارة إليه (موضوع حركة النهضة) من إحساس المثقفين الجزائريين بالخراب الذي أصاب الحياة العلمية والفكرية ببلدهم. وإذا كانت حملة نابليون بونابرت 1798 م قد لعبت دور منبه للمشرق العربي ولافت له إلى ضرورة التغيير، وبعد فشل كل تصور إصلاحي سابق، ورغم بعض الاطلاع على وضع الغرب قبل الاحتلال، فإن الاستعمار الفرنسي الدموي والاستتصالي ومواجهته كان عاملا حاسما في تحريك العقل الوطني لدراسة وضع البلد والسعي إلى تغييره. وسيتوزع ذلك خلال القرن التاسع عشر على فئات؛ من مصلحين مناهضين صراحة للاستعمار أو مهادين له أو ممالئين له أيضا، فالجميع أدرك الوضع المتهالك للأمة على جميع الأصعدة وتسببه في الاستعمار وأدرك ضرورة تغييره والسعي إلى اكتساب أسباب التطور والقوة.

فسواء تعلق الأمر بمن ساروا في ركاب المحتل من أمثال محمد الشانلي القسنطيني (1807-1877) أو سليمان بن صيام (1817- 18...) صاحب (الرحلة الصيامية 1852) أو محمد السعيد بن علي الشريف (رحلة إلى باريس 1852) أحمد ولد القاضي - والصحيح ولد قادي-روكان أغا فرنده الذي كتب (الرحلة القادية في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية 1878) الذين انبهروا بما شاهدوه من تفوق فرنسي ومن تنظيم حديث لباريس، وكذلك محمود بن علي الجزائري (ت 1897) في رسالته (نصيحة عمومية لأهل الحضر والبادية - في جريدة المشر 1867) وضمنها قوله: "وكيف وقد صارت اللغة الفرنسية وكتابتها في هذه الأعصر وسيلة لا غنى عنها في العلوم على اختلافها، وسائر الصنائع وفنونها، خصوصا الطب والهندسة والحساب والتنجيم والجغرافية والطبيعات والرياضيات وما يتفرع منها، ولا يتأتى للإنسان أن ينكر براعة أهل فرنسا في جميع هذه الفنون مع صناعات غريبة جديدة اخترعتها، فلا يمكن الوصول إلى ما ذكرنا إلا باللغة الفرنسية وكتابتها لعدم وجود اللفظ العربي". (نصيحة عمومية، تحقيق: عادل مهال، ص: 93). ويقارن بيننا وبين محمد علي الذي أنفق أموالا طائلة لأجل ذلك بينما نحن مقيمون مع الفرنسيين ويمكننا الاستفادة منهم دون جهد (المرجع نفسه 94-95).

أو بالمصلحين المناهضين للاستعمار أمثال حمدان بن عثمان خوجة (1773- 1840) يقول مقارنا بيننا وبين الغرب: " هذا والفرنج .. توارثوا الصنائع المهمة وزاد فيها آخرهم على الأول وتوفرت عساكرهم ومتاجرهم اللتين عليهما المعول واستدرجوا فاكثقوا بقله حزمنا عن قتالنا حيث ضعفت قوانا واستأصلنا رجالنا" (مخطوط إتحاف المنصفين والأدباء، ورقة: 4).

ويقول: " لا مجال لإنكار كون الفرنج في زماننا وقيبله قد تمهروا في العلوم الطبيعية والصناعية والرياضية مع عدم تقيدهم بما يتعلق بأمر أخراهم حتى صار الطب والنجوم والهندسة وكثير من العمليات كالمختص بهم" (مخطوط إتحاف المنصفين والأدباء، ورقة: 33). أو ابن العنابي (محمد بن محمود بن محمد بن حسين) المعروف بابن العنابي أو بالعنابي (1775-1851) وغيرهم من الذين دعوا إلى الأخذ بأسباب العلم الحديث واكتسابه من الفرنسيين وتعلم لغتهم والانفتاح على معارفهم، لنقرأ ابن العنابي الذي عاصر الاحتلال الفرنسي للجزائر ماذا يستنتج: " وإنهم [الفرنسيون] إذا ابتدعوا من أدوات الحرب وصنائه أمرا له موقع لا تؤمن استطالتهم به علينا، لزمنا بذل الوسع في تعلمه وإعداده لهم والاجتهاد في مجاوزتهم فيه. وإنه إذا لم يكن استعلام ذلك إلا من قبلهم، وجب استعلامه منهم لأنه مستطاع لنا. وإنهم إذا أعدوا لنا صواعق البارود فأعدنا لهم القسي والمنجنيق اللذين صارا اليوم كالشريعة المنسوخة أو اقتصرنا على السيوف والبندقيات أو شمروا لنا الثياب فأعدنا للقائم الثياب المجررة والأكمام المطولة، والعمائم المكبرة لم نخرج عن عهدة الأمر، ولزمنا الإثم والعار، فلا غرض الشارع حصلنا ولا سبيل الرجولة سلطنا" (السعي المحمود- مخطوط ورقة 7).

وسيتواصل هذا الخط مع مجموعة من العلماء والمفكرين من ذوي التوجه الاصلاحى، من أمثال عبد القادر المجاوي (1848-1913). ومن أشهر أقواله: " التعليم القديم غير نافع في زماننا لنقصانه، إذ تعليم القرآن وحده على الكيفية المألوفة بهذه الأقطار لا يفيد المتعلم. فلا بد من معرفة العلوم النافعة في الدين والدنيا، أما إذا اقتصرنا على أحد العلمين ضاع ما يفترق لذلك العلم المجهول، ولكن أهل زماننا تركوا العلمين معا ولا حول ولا قوة إلا بالله" (من اللع على نظم البدع نقلا عن محقق إرشاد المتعلمين، ص:5). ووصفته جريدة الشهاب بأنه: " العلامة الأستاذ الشيخ عبد القادر المجاوي رحمه الله فهذا الرجل هو أبو النهضة العلمية بقسنطينة وهو شيخ الناس بجميع عمالتها، عليه تخرج القضاة ورجال المحاكم ورجال التدريس والفتوى فلا تجد واحدا من هؤلاء في الربع الأول من هذا القرن إلا وهو من تلامذته ولو كان هذا الرجل من أمة عالمة لأحيت ذكراه في كل مناسبة" (جريدة الشهاب جزء 3 مجلد 8 سنة 1932، ص: 194).

وبالفعل فإن تلامذة هذا الرجل هم رواد وآباء الحركة الاصلاحية في الجزائر ومن أشهرهم: حمدان الوئيسي القسنطيني (1856-1920)، الذي ترك إرثا عظيما من تلاميذه أمثال العربي التبانى، عبد الرحمن الديسى، محمود كحول (مؤسس جريدة كوكب إفريقيا 1907)، عبد الحميد بن باديس، الطيب العقبي، البشير الابراهيمي، وغيرهم من جزائريين وعرب من جنسيات مختلفة. ويبدو أن تأثيره كان حاسما وعميقا في عبد الحميد بن باديس إذ ظل يذكره طوال حياته وهو الذي نصحه بعدم العمل في وظيفة لدى السلطات الفرنسية. ومعه يذكر أيضا المولود بن الموهوب (1863-1935) وهو أستاذ ابن باديس كذلك، ومؤسس نادي (صالح باي - 1908)، دون أن ننسى العلامة الشهير محمد بن مصطفى بن الخوجة (الكمال) (1864-1915) وهو من أبرز المفكرين المصلحين رافق محمد عبد بالجزائر وكرمه باي تونس وهو صاحب (الاكتراث في حقوق الاناث - 1895)، و (إقامة البراهين العظام على نفي التعصب الديني في الإسلام - 1902).